تقديم

يضم هذا الكتاب عددًا من الدراسات والأوراق العلمية والمقالات، يجمع بينها الاهتمام بعلاقة الدين بالدولة الحديثة في المجتمعات العربية – الإسلامية، مع تركيز خاص على السودان. ويعود ذلك إلى أن الحركة الإسلامية في السودان قامت بأول محاولة في المنطقة (خارج القارة الآسيوية) لبناء دولة ذات مرجعية دينية تعمل على تأصيل الفكر السياسي الإسلامي على قطر متعدد الثقافات مثل السودان. وتأتي التجربة مع موجة ديمقراطية اجتاحت العالم بعد سقوط المعسكر الشرقي وتفكك الاتحاد السوفييتي والكتلة الشيوعية. وصارت مطالب الديمقراطية وحقوق الإنسان، والحريات من الأولويات في أجندة المجتمع الدولي. وقد اكتسبت هذه المبادئ أهمية جعلت منها شرطًا للحداثة ودليلًا على مسايرة تطورات القرن الحادي والعشرين. وصارت الانقلابات العسكرية مدانة في كل العالم، وتعتبر حكومات الانقلابات شذوذًا في مسيرة البشرية نحو الحرية وكرامة الإنسان، لذلك صدرت القرارات بمقاطعة دول الانقلابات وحرمانها من المشاركة في المؤتمرات واللقاءات الدولية والإقليمية.

جاءت التجربة الإسلامية السودانية عكس التاريخ تمامًا، إذ بينما يتجه العالم كله نحو الديمقراطية والتعددية، حتى في أكثر القلاع دكتاتورية وشمولية، فقد قام الإسلامويون السودانيون باللجوء إلى الانقلاب العسكري في يونيو ١٩٨٩، وكان سقوط حائط برلين في عام ١٩٩٠، وأعقبته تحولات في كل الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي السابق، والتي اختارت أن تحكم من خلال الحزب الواحد والأجهزة الأمنية. وجاءت التجربة الإسلامية لتقدم نسخة إسلامية لشمولية تحتضر في أماكن أخرى. فقد كانت نقيصة التجربة الإسلامية القاتلة، هي أن تأتي من خلال انقلاب عسكري وليس عن طريق الانتخاب، وبالدبابة وليس بصندوق الاقتراع. وهنا انطبق عليها قول أنطونيو غراماشي: «إن طريقة الوصول

إلى السلطة يحدد ماهية السلطة وممارستها» . وهذا ما حدث بالفعل، وصول الإسلامويين للسلطة في السودان عن طريق القوة، جعلهم لا يرون بديلًا عن القوة والقمع والاضطهاد، لتأمين سلطتهم وتثبيت حكمهم.

ارتكزت التجربة الإسلاموية السودانية على أيدولوجيا خيالية وغيبية أيضا ، وفي نفس الوقت لا تاريخية تظن أن الزمن توقف في تجربة سابقة يمكن استعادتها إلى ما لا نهاية في مستقبل التاريخ البشري. وعندما يواجه هؤلاء الواقع يقفزون بين الحقيقة والخيال، هروبًا من المواجهة. وقد يلجؤون إلى اللغة ويظنون أن الكلام عن الشيء قد يعني حدوثه فعلا، بسر حرف كن ، وتغيب الإنجازات الحقيقية ومع ذلك يستمرون في الوعود والأماني الطيبة، وهناك ملاذ آخر وهو المؤامرة الخارجية أو الحصار الخارجي، وهذه لازمة يرددها نظام الإنقاذ حتى اليوم ، رغم أن هذا النظام حاصر نفسه بنفسه ، وأكثر نظام استفاد من مرحلة فوضى وجود نظام عالمي جديد، ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية وصلت لدرجة ضرب مصنع (الشفاء) إلا أن النظام استفاد من لوبي داخل الإدارة الأمريكية ومن أنصار ومؤيدين للنظام لهم خيوط قوية تربطهم بأمريكا الرسمية صنعوها أثناء دراستهم هناك أو عملهم في منظمات إسلامية عالمية ، وكان النظام يسعى بجدية لتوسيع وتقوية اللوبي المساند للسودان هناك.

عجز الإسلامويون السودانيون عن تبرير فشلهم مع وجود السلطة كاملة في أيديهم دون منافسة ، وهم الذين بروا الانقلاب بسبب استبعادهم من الحكومة الديمقراطية الأخيرة في فبراير ١٩٨٩ ، وقد تحمل الإسلامويون السودانيون عبء تأسيس دولة الإسلام في القرن العشرين، وتجمع الإسلامويون من كل العالم في السودان ، بالذات أولئك المضطهدون والمطاردون في أوطانهم ، ودشن الشيخ الترابي الأممية الإسلامية (السنية في الغالب) في الخرطوم ممثلة في المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي عام ١٩٩٠ ، وجمع كل الثائرين ضد الإمبريالية. وانتهى الأمر

بتسليم كارلوس لفرنسا مقابل صفقة ، كما أبعد بن لادن تاركًا الكثير من أمواله التي ضاعت بين إخوة مجهولين الآن. ويبدو أن هذه الاستراتيجية كانت هي مقتل المشروع الحضاري. وقد تكون بعض القيادات رأت في هذا البعد الأممي الضمان الوحيد لحكم الإنقاذ الذي كان – ومازال – يفتقر إلى الشعبية والسند الجماهيري، أي أن يجد السند الإعلامي والمالي من الخارج، ولا يهم دور الجماهير خاصة إذا ظل كامنًا بسبب القمع والإرهاب.

لم يعد أصحاب المشرع الحضاري حين يعددون الإنجازات يتحدثون عن إعلاء كلمة الدين أو إقامة شرع الله ، بل يفاخرون بسوداتل وآبار النفط الجديدة. هذا ليس تقليلًا لأي إنجاز مادي – اقتصادي نحتاجه بلا شك، ولكن هذا ما يمكن أن يفعله إنقلابيون علمانيون وبثمن أقل. فالسؤال : ما الذي يميز المشروع الحضاري عن مشروع النميري أو عبود؟ هذه هي بداية سقوط المشروع الحضاري أن يتحول عن الدفاع عن قيم الدين العليا مثل العدالة ، والطهارة ، ومكارم الأخلاق جميعا إلى التنافس حول إنجازات البنك الدولي ودول العالم الثالث التقليدية والتي تتداولها كتابات التنمية الكلاسيكية . فهذه التسمية الكبيرة الفخمة لنظام شمولي يتحول تدريجيًا إلى الانفتاح لا تعبر عن المضمون الحقيقي للدولة والمجتمع القائمين، لذلك كان لابد من التصدي فكريًا لكشف حقيقة التجربة خشية أن تتكرر مستقبلًا في السودان أو أي بلد إسلامي آخر. ورغم المكابرة المستمرة بأن المشروع حي وخالد، إلا أن أصحابه عجزوا عن تقديم البينات واكتفوا بالمغالطة أو التهرب. لقد تم اختزال المشروع الحضاري في صراع بدائي حول السلطة وصل حد إلى أن جناحًا في الحركة – رغم تضحياته وريادته – مهدد بأحكام الإعدام على تهم تشي بالخيانة والتآمر.

حقق أصحاب المشروع الحضاري – قصدًا وأحيانًا بغير قصد – الإنجاز الأكبر المشين ، وهو إذلال الإنسان السوداني والحط من كرامته بقصد تأمين

التمكين. فاللجوء إلى التعذيب، والقمع، والفصل التعسفي وجلد النساء ومطاردة الطلاب والشباب، وتحديد الملبس، ووقت الاستيقاظ، وإنهاء الاحتفالات، وكل مظاهر النظام العام.. إلخ، كل هذه وسائل تؤمن النظام وتحط من قدر الإنسان السوداني، وقد استخدمها أصحاب المشروع الحضاري دون أن ترف أعينهم أو يوخزهم ضمير، وفي موازين المؤمنين والإنسانيين لا يوجد أي هدف أو غاية، مهما كانت نبيلة ومقدسة يمكن أن يبرر اضطهاد أو احتقار الإنسان لأخيه الإنسان، ومن حق أي نظام أن يحمي أمنه كما يشاء دون أن يهين الإنسان الذي كرَّمه الله، يمكن أن يستجوب ويحقق مع المواطنين حتى في غياب الدستور أو القوانين التي تحترم حقوق الإنسان، ولكن دون الإهانة والتحقير. هذه مسؤولية المشروع الحضاري الذي أدخل للسودان قيمًا غريبة وشاذة وربطها للأسف بالدين، لو وضعنا كل إنجازات الدنيا في كفة وإهانة مواطن في الكفة الأخرى لحقت تلك الإنجازات: الأعلى من قدر الإنسان هو الإنسان.

***

يأتي هذا الكتاب ضمن المشروع النقدي للتجربة السودانية خاصة، ولإمكانية قيام دولة دينية في المنطقة وسط هذه العولمة الكاسحة وظهور كثير من القيم والمبادئ التي لم ننتجها نحن، ولكنها صارت عالمية وإنسانية، وبالتالي ملزمة للبشرية. هناك تحديات عظيمة تقتضي إعمال العقل والاجتهاد غير المقيد، إذا أردنا تجنب الفوات التاريخي.

حيدر إبراهيم علي

القاهرة - ديسمبر ٢٠١٢